

الفصل الأول أسباب الغربة الأولى

أسباب الغربة الأولى

إن أي دعوة جادة تنشأ لأول مرة في مجتمع من المجتمعات؛ تكون غريبة عليه، وغير مألوفة لديه؛ ولذلك تواجه في أول أمرها الاستغراب، والتوجس، والشك؛ بل وتواجه في معظم الأحيان: الرد، والرفض، والاستنكار.

وكلما بعدت الشقة وعظم الفرق بين الحال التي يعيشها هذا المجتمع -عقيدة وسلوكًا وتشريعًا- وبين الصورة التي جاءت بها هذه الدعوة الجديدة؛ كان ذلك أدعى إلى عظم المواجهة، وضراوة الحرب، وشدة النفور.

ولو تصورنا الحال التي كانت تعيشها الجاهلية العربية الأولى التي بعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم، ومدى تغلغل الفساد، والهوى، والانحراف العقدي، والتشريعي، والسلوكي فيها...، وتعارف الناس على الأوضاع والمعتقدات الوثنية، وبناء حياتهم وتصرفاتهم كافة -حضرًا وسفرًا، فعلاً وترغًا- على هذه المعتقدات والتصورات..

ثم تصورنا الدعوة التي يحملها المصطفى
صلى الله عليه وسلم من لدن ربه عز وجل،
وما فيها من الكمال، والجمال، والنقاء، والتطهر،
والتوحيد، ورد الأمور كلها لله عز وجل، ورفض
كل الآلهة المدعاة، وتسفيه أحلام عابديها على
مدار الزمان، وإعادتها إلى أوضاعها الطبيعية:
أحجارًا أو أشجارًا أو تماثيل؛ لا تسمع ولا تبصر،
ولا تنفع ولا تضر...، ونبذ المعتقدات الضالة
المتعلقة بالملائكة، أو بالجن، والمتأصلة في
عقليّة الرجل العربي، وتغيير الشعائر،
والمناسك، والتشريعات، والعوائد الاجتماعية،
والقبلية، والدينية التي تسيطر على هذه البيئة...
لو تصورنا هذه إلى جنب تلك في كل
مجالات الحياة، والاعتقادات التي جاء الإسلام
لتغييرها، وإعادتها إلى أصولها الصحيحة؛ لأدركنا
طبيعة المعركة التي كان لابد أن تثور وتدور بين
هذا الوضع الثابت المستقر الموروث، وبين هذه
الدعوة الجديدة الناشئة.

وهذا الأمر وحده -وهو الفرق الشاسع بين صورة الجاهلية المهلهلة المظلمة المضطربة، وبين الحقيقة الناصعة القوية التي جاء بها الإسلام- كاف في تعليل الغربة الأولى التي واجهها، وعانها النبي عليه الصلاة والسلام في مطلع الدعوة...، واستمرت آثارها فترة ليست بالقصيرة من عمر الدعوة الأولى.

ولكن ثمة بعض الأسباب التفصيلية التي يحسن ذكرها لأهميتها البارزة في تفسير هذه الغربة⁽¹⁾.

أولاً: ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

فمن ذلك ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب، حيث لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم برسالاته العامة الخاتمة، كما أخبر الله تعالى عن ذلك في كتابه حيث يقول: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)⁽²⁾، ويقول (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)⁽³⁾.

قال ابن جريج رحمه الله: "...لم يأتهم ولا آباءهم، لم يأت العرب رسول من الله عز وجل"⁽⁴⁾.

وورد نحو هذا المعنى عن قتادة رحمه الله⁽⁵⁾.

وقال تعالى مبيناً نفي إنزال الكتب عليهم، أو إرسال الرسل إليهم: **(وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ)**⁽⁶⁾.

ومهما يكن معنى هذه الآيات؛ فإن العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، لم يكونوا يدينون بدين، ولا يدرسون كتاباً من الكتب السماوية، كما كانت تفعل اليهود والنصارى، ولهذا احتج الله عليهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وقال: **(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَنْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)**⁽⁷⁾.

وأما الآثار المتي وصلت إلى أجدادكم من
تـراث إبراهيم عليه الصلاة
والسلام ومن تلاه من الأنبياء والرسل، فقد
تحولت إلى رسوم حائلة دارسة، ليس فيها إلا
إغراء العرب بالتمسك بما هم عليه، بزعم أنهم
على إرث من إرث أبيهم إبراهيم عليه السلام،
والأنبياء بعده، حتى إن إبراهيم وإسماعيل
عليهما الصلاة والسلام قد صورهما العرب
بصورة المؤيدين للعوائد والرسوم الجاهلية
الوثنية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم أبا
أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت
فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما
الأزلام، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: **"قاتلهم الله! أما والله قد علموا
أنهما لم يستقسما بها قط"**، فدخل البيت
فكبر في نواحيه، ولم يصل فيه⁽⁸⁾.

بل أدهى من ذلك وأمر؛ أن البيت - الذي هو
رمز التوحيد، ومقصد الأنبياء جميعًا صلى الله
عليهم وسلم - صار في عرف الوثنية العربية بيتًا
للأصنام والأنصاب، حتى إنه كان حوله ثلاث مئة
وستون صنمًا!.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:
"دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم
الفتح، وحول البيت ستون وثلاث مئة نُصُب،
فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: **جاء الحق،
وزهق الباطل، جاء الحق، وما يبدئ
الباطل وما يعيد**" (9) " (10).

لقد كان شعور العرب بأنهم ورث دين
إبراهيم، وحفظة مناسكه، وسدنة البيت العتيق؛
يجعلهم أبعد عن قبول الدعوة والانصياع للحق؛
لوجود هذه الشبهة الواهية لديهم.

كما كان لتغلغل المعتقدات الوثنية في
حياتهم وعقولهم، وسيطرتها على تفكيرهم؛ أثر
عظيم في تصلبهم أمام الحق، وإبائهم الانقياد
والإذعان لدعوته، هذا فضلاً عن أن طبيعة النفس
البشرية حين لا تدين بدين سماوي؛ فإنها تبتعد
عن التجريد والصفاء العقدي، وتميل إلى
التجسيم المادي الحسي.

ولذلك أقدم عباد الأصنام على بذل نفوسهم
وأموالهم وأبنائهم دونها وهم يشاهدون مصارع
إخوانهم وما حل بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبا لها
وتعظيمًا، ويوصي بعضهم بعضًا بالصبر عليها،
وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها، وهم
يسمعون أخبار الأمم التي قُتلت بعبادتها وما حل
بهم من عاجل العقوبات⁽¹¹⁾.

يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي⁽¹²⁾ في وصف موقف العرب من دعوة التوحيد: "وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسمًا، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكمًا، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها؛ من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة، فحين قام فيهم صلى الله عليه وسلم بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فسرعان ما عارضوا معروفيه بالنكر، وغيّروا في وجه الصواب بالإفك⁽¹³⁾، ونسبوا إليه -إذ خالفهم في الشريعة، ونابذهم في النحلة- كل محال، ورموه بأنواع البهتان: فتارة يرمونه بالكذب -وهو الصادق المصدوق، الذي لم يجربوا عليه قط خبرًا بخلاف مخبره- وآونة يتهمونه بالسحر -وفي علمهم أنه لم يكن من أهله، ولا ممن يدعيه-، وكرة يقولون: إنه مجنون -مع تحققهم بكمال عقله، وبرأته من مس الشيطان وخبله-، وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحق وحده لا شريك له؛ قالوا: **(أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)**⁽¹⁴⁾، مع الإقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة **(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُا**

اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ⁽¹⁵⁾. وإذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا ما يشاهدون من الأدلة على إمكانه، وقالوا: **(أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)** ⁽¹⁶⁾، وإذا

خ
فهم نقمة الله قالوا: **(اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)** ⁽¹⁷⁾. اعتراضاً على صحة ما أخبرهم به مما هو كائن لا محالة، وإذا جاءهم بآية خارقة افترقوا في الضلالة على فرق، واخترفوا فيها -بمجرد العناد- ما لا يقبله أهل التهدي إلى التفرقة بين الحق والباطل...

فكذلك كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ فأنكروا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم؛ لأنه خرج عن معتادهم، وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم، حتى أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة في زعمهم ليوقعوا بينهم وبينه (هـ)⁽¹⁸⁾ المؤالفة والموافقة ولو في بعض الأوقات، أو في بعض الأحوال، أو على بعض الوجوه، ويقنعوا بذلك؛ ليقف لهم بتلك الموافقة واهي بنائهم، فأبى عليه الصلاة والسلام إلا الثبوت على محض الحق، والمحافظة على خالص الصواب، وأنزل الله **(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...)** إلى آخر السورة⁽¹⁹⁾.

فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة، ورموه بسهام القطيعة، وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه، عاد الولي الحميم عليه كالعذاب الأليم، فأقربهم إليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته؛ كأبي جهل وغيره، وألصقهم به رحماً كانوا أقسى قلوباً عليه!.

فأي غربة توازي هذه الغربة؟!⁽²⁰⁾...

ثانيًا: العصبية لثراث الآباء والأجداد:

ومن عادة المشركين والموثنيين: تقديس ما وجدوا عليه آباءهم، وتحريم المساس بشيء منه؛ إذ هو عندهم الشرع الأعظم، والمنهج الأقوم، الذي يعتبر من تردد في قبول شيء منه -بل من رده، أو ردَّ بعضه- مسقَّهاً للسابقين، مزرئاً بعقولهم، مستكبراً عليهم، غير مؤد لحقوق البر الواجب لهم؛ فهو منسوب إلى عقوقهم، والسعي لإخمال ذكرهم.

ولهذا كان أكبر طاغوت تحارب به دعوات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو طاغوت التقليد والعادة المتبعة.

فهؤلاء قوم موسى يردون دعوته لأنها ستلفتهم عما كان عليه آباؤهم، وتجعلهم أتباعاً لأصحاب الدعوة الجديدة، وهذا ما لا يطيقونه: **(قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ)** ⁽²¹⁾.

وهذا إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه
قائلاً: (.. مَا تَعْبُدُونَ • قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَنْتَظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ • قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ
إِذْ تَسْتَذْعُونَ • أَوْ يَنْفَعُكُمْ أَوْ
يَضُرُّكُمْ • قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ) ⁽²²⁾.

فحين يقهرهم بالحجة المفحمة المبينة عن
سخر هذه الأسطورة وتهافتها، وأنها لا تستند
إلى عقل ولا نقل؛ يهربون إلى التعلل بالتقليد
ومحاكاة الآباء والأجداد فحسب!.

وعندئذ يعلن الداعية حقيقة الأمر، ويبين أن
الإسلام لا يقيم وزناً للأعراف والعوائد الموروثة
عن الآباء والأجداد، ما دامت مصادمة للحق
مناقضة للوحي: (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ • أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ • فَإِنَّهُمْ
عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) ⁽²³⁾.

وإذا كان صرّح -هاهنا- ببراءته من الآلهة المدعاة، وجاهر بعدواتها؛ فإننا نجده يصرح مرة أخرى ببراءته من عابديها، وعداوته لهم، وتضليله لما كانوا عليه: **(قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** ⁽²⁴⁾، **(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ..)** ⁽²⁵⁾.

وهذا المسلك في الحيدة عن منهج الرسل، ورفض المناقشة العقلية، ومقارعة الحجة بالحجة؛ ليس خاصًا بهؤلاء أو أولئك؛ بل هو دأب المشركين والمعارضين لدين الله -على مر الأجيال-.

فهم إذا دعوا إلى ما أنزل الله من الكتاب، وإلى ما جاء به النبي عليه السلام، من الحق والصواب؛ تلجلجوا، وقالوا: **(حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)** ⁽²⁶⁾، **(بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)** ⁽²⁷⁾.

وإذا استنكر عليهم الدعاة الأطهار
المصلحون ولو غمهم في الشهوات وانهماكهم في
الفواحش، وساءلوههم عن ذلك؛ قالوا: **(وَجَدْنَا
عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا)** ⁽²⁸⁾.

وما ذلك إلا لفقدان الحجة لديهم، وانقطاع
المعذرة؛ إذ إنهم لا يستندون إلى عقل يهديهم، ولا
كتاب يشهد لهم؛ ولذلك قال الله تعالى عنهم:
**(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)** ⁽²⁹⁾.

وبالجملة فهذه هي القاعدة المطردة عند
جميع الأقوام المكذبين لرسولهم، الرادين عليهم
دعوتهم، مهما يكن فيها من النور والهدى،
يسجلها الله على كفار بني يعرب - خاصة - ثم
على المكذبين عامة.

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ
مُتَمَسِّكُونَ ۚ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ
مُتَعَدُّونَ ۚ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا
وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ
مُتَعَدُّونَ ۚ قَالَ أُولَٰئِ هُنَّ أُمَّهَاتُكُمْ
بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ) (30).

وإنما أوقع المشركين في هذا التقليد
الكافر، المهدر لعقولهم، المسقط لقيمتهم
البشرية، استغلال الشيطان لفطرة مركوزة
-أصلاً- في الإنسان، تدعوه إلى الوفاء للآباء
والأجداد، وتربطه بتراثه وتاريخه، وهذا من
أعظم وسائله في الكيد: أن يأتي الإنسان من
قبل غريزة مطبوعة فيه من حب الشهوة
والوطن والمال وغيرها.

عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك، ودين آبائك وآباء أبيك؟ فعصاه، فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك، وسماؤك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في المطا

ـول⁽³¹⁾؟!، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل، فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فمن فعل ذلك كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قُتل كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وقَصَّتهُ⁽³²⁾ دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة"⁽³³⁾.

فالإغراء الملحوظ في هذا الكيد الذي

خب^٣

ر عنه النبي صلى الله عليه وسلم؛ هو مخاطبة
الدوافع الفطرية عند الإنسان، والتحذير من
الإسلام لأنه مخالف لعوائد الأجداد، والتحذير من
الهجرة لأنها خروج من الوطن الذي أقلت
المهاجر أرضه، وأظلت ه سماؤه، وأشرقت عليه
شمسه، ومازال الشعراء المصابون بلوثات
الوثنية يقدسون الوطن، ويقولون:

وطني لو صوروه لي وثناً
لهممت ألثم ذلك الوثناً!

* * *

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد

نفسي!

* * *

ويا وطني لقيتك بعد يأس
كأنني قد لقيت بك

الشبابا

أدير إليك قبل البيت وجهي
إذا فهت الشهادة

والمتابا

والتحذير من الجهاد لأنه إنهاك النفس،
والمال، أو القتل، وزهوق الروح.. والإنسان
-بطبعه- يحب الحياة، ويحب المال، ويحب الولد.
ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كان
من المعاييب التي ألصقها به المشركون أنه يدعو
إلى خلاف ما عهدوا عليه الآباء والأجداد، وبذلك
نفروا منه العامة والدهماء، وفرضوا على الدعوة
نوعًا من الحصار المؤقت.

عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط؛ سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلَهنّا...، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، - أو كما قالوا-، قال: فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك على وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: **"تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح"**، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول! حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا ! فوالله ما كنت جهولًا!

قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه!.

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **نعم، أنا الذي أقول ذلك**، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه. قال: وقام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه دونه يقول -وهو يبكي-: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإنه ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط⁽³⁴⁾.

ثالثاً: موقف أهل الكتاب المساند للوثنية:

ومما ضاعف المتاعب التي لاقاها الداعية الأول صلى الله عليه وسلم وأتباعه المؤمنون؛ أن البيئة التي بعث فيها كانت على صلة ما ببعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين شرقوا بالدعوة، وناصبوها العدا، وكان العرب ينظرون إليهم نظرة إعجاب وإكبار، لما كان في أيديهم من الكتب، ولما كان لديهم من العلم.

وإذا كانت بيئة العرب الوثنية العريقة مستعدة أصلاً لمواجهة دعوة التوحيد ومحاربتها، فإنها قد وجدت في موقف أهل الكتاب الرافض للدعوة "مستنداً" شرعياً لهذه المقاومة.

فهاهم أهل التوراة والإنجيل، وورثة الكتب السماوية؛ ينكسرون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويردونها ويكذبونها، وهم أدري منا بالدين وأعلم!، وهذا كان مصدر تثبيت ودعم لموقف المشركين.

(وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِثْلَقٌ) (35).

فمن عوامل الصبر على الآلهة في مواجهة الدعوة الجديدة؛ أنهم لم يسمعوا بما جاء به صلى الله عليه وسلم في الملة الآخرة: وهي النصرانية، قاله ابن عباس والسدي ومحمد بن كعب القرظي وقتادة ومجاهد⁽³⁶⁾.

وهذا - فيما يظهر، والله أعلم بالصواب - مبني على شهادة من أهل الكتاب للمشركين ضد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلا فما كان للعرب من علم بالكتب السماوية، وما فيها من الحقائق والأخبار.

ويؤكد هذا ما حكاه الله في موضع آخر من شهادة اليهود للوثنيين؛ ضد الموحدين المؤمنين. قال تعالى: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحُبِّ وَالطَّاعَةِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)**⁽³⁷⁾.

وذلك أن اليهود حصروا أنفسهم في خندق واحد، مع مشركي العرب في الحرب الدائرة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، وزكوا ديانة العرب الوثنية، وفضلوا أهلها على المؤمنين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا الصنوبر المنبت من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير منه، قال: فأنزلت: **(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)**⁽³⁸⁾، وأنزلت: **(أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)...** إلى قوله: **(فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)**"⁽³⁹⁾.

ومعنى ذلك أن الله وصف الذين أُوتوا نصيبًا من الكتب -من اليهود-، بتعظيمهم غير الله بالعبادة والإذعان له بالطاعة في الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما، وأنهم قالوا: إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به، وإن دين أهل التكذيب لله ولرسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق.

وهذه صفة كعب بن الأشرف الذي انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي صلى الله عليه وسلم، وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم على قتاله⁽⁴⁰⁾...

وهكذا يقف المنحرفون من أتباع الديانات السماوية في صف الوثنية الصريحة، مناوئين للإيمان؛ حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، ولقد كانوا أولى الناس أن يتبعوا الكتاب، وينصروا الرسول، ويكفروا بشرك العرب، ولكن طبيعتهم الملتوية، وأطماعهم البعيدة، وأحقادهم المتمكنة؛ جعلتهم يدركون أن الحق ضدهم، وضد أهوائهم، وأنهم لا يمكن أن يعيشوا إلا في مستنقعات الشرك والوثنية، ومن ثم أدلوا بهذه الشهادة الخطيرة⁽⁴¹⁾!

ويمكن أن نتصور - الآن - جزءًا من معنى الغربة التي لقيها إمام الموحدين صلى الله عليه وسلم والقلّة المؤمنة معه، حيث رمتهم الدنيا كلها عن قوس واحدة، وتألّبت على عدواتهم الطوائف كافة. منذ بدء الدعوة - كما توحى به الآية الكريمة في سورة (ص)-، وإلى أن تمكنت هذه الغرسة الربانية في نفوس الأنصار في المدينة، حيث قامت دولة الإسلام الأولى.

وكان ترقى الدعوة في مدارج الكمال، وتحقيقها للانتصارات المتتالية؛ من أسباب احتدام العداوة اليهودية - بل والكتابية - لها، وشذورها بضرورة القيام بعمل عسكري وإعلامي مشترك، وهو ما حاولت اليهودية تحقيقه في غزوة الأحزاب حين ألبت قوى الكفر والشرك على المدينة المنورة حتى صار الحال كما وصف الله: **(إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)** (42).

وعلى رغم تمكن الإسلام، ورسوخه، وامتداد جذوره في أرض الهجرة وغيرها؛ إلا أن المخاطر لا زالت قائمة، والأعداء المتربصون حول المدينة كثير.

ولذلك جاء في الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **"احصوا لي كم يلفظ الإسلام؟"** قال: فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الست مئة إلى السبع مئة؟! قال: **"إنكم لا تدرون لعلمكم أن تبتلوا"**. قال: فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا⁽⁴³⁾.

وقد ذهب عدد من العلماء والشرّاح إلى أن هذا كان عند أحد، أو يوم الخندق، حيث حوَّصر المسلمون إلى الحد الذي قال معه بعض المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حُصرنا هاهنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته! ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا⁽⁴⁴⁾.

وكان أمر الأحزاب من كيد اليهود وتديبرهم ومشاركتهم، حيث ألُّبوا قريشًا وغطفان، ونقضوا عهدهم التي أبرموها مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبذلك يتضح دور اليهود - وأهل الكتاب عامة - في فرض طوق الغربة على الإسلام حينًا من الدهر، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو كره الكافرون.

رابعًا: سيطرة الأعراف، والعوائد القبلية :

ولقد كانت البيئة العربية بيئة قبلية، تسيطر عليها الأعراف، والعوائد القبلية، ويحكمها في كثير من تصرفاتها ومواقفها؛ الصراع القبلي، والتنافس على الرياسة والشرف والسؤدد.

وحين اختار الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم للرسالة كان صلى الله عليه وسلم في الذروة من قومه، حيث التقى فيه ما تفرق في بيتي (عبد مناف) -من جهة أبيه-، و(زُهرة) -من جهة أمه- من شرف، ومكانة، وكرم خليفة.

فهو في الذؤابة من قريش ثم من بني هاشم - وهم عليّة العرب - من حيث النسب، كما كان صلى الله عليه وسلم معروفاً بينهم بسمو الخلق، وكرم السجايا، وجميل الخصال، بعيداً عن أن يُزَنَّ⁽⁴⁵⁾ بأدنى خلة مُردية من خلال المتي كانوا يتفأخرون بها في جاهليتهم،

متن
هّا عن كل ما يشين؛ إذ كان الله تعالى يحوطه من أول أمره، ويحفظه عن كل ريب، أو منقصة.

ولكنه لم يترأس عليهم بعدُ رئاسة قبلية؛ لعوامل كثيرة تتعلق بالبيئة والسن من جهة، ولحكم وأسرار إلهية من حيطة هذه الدعوة أن يتلبس بها مطمع من المطامع الدنيوية، المتي تجرّ إليها غير المخلصين، أو تبعد عنها المترفعين المتعففين؛ ولذلك كان من اعتراضات المشركين أن يتساءلوا عن السرف في اختيار محمد صلى الله عليه وسلم لهذه الدعوة.

ولأنهم محجوبون عن إدراك فضائله الخلقية،
وخصائصه الشخصية، فإنهم لا يرون له عليهم
فضلاً، ولا مزية؛ بل يرون أن فلاناً وفلاناً من كبار
رجال القبائل، وعظمائها أولى وأجدر بالرسالة
-لو كانت-: **(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ
عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)** ⁽⁴⁶⁾.

وليس المقصود - بالضرورة - رجلاً بعيداً، كما
تحدث بعض الروايات، وتسمي من رجال مكة:
الوليد بن المغيرة المخزومي، أو عتبة بن ربيعة،
وكانوا يسمون الوليد: ربحانة قريش !.

وتسمي من رجال الطائف: حبيب بن
عمرو الثقفي، أو ابن عبد ياليل، أو عروة بن
مسعود، أو كنانة بن عبد... أو غيرهم ⁽⁴⁷⁾.

إنما المقصود أن المشركين يقترحون أن
تكون الرسالة في رجل عظيم من مكة، أو
الطائف، ممن له شرف ورياسة ومشخة في
قومه.. كهؤلاء المذكورين، أو غيرهم.

وأنى لهؤلاء المساكين أن يتدخلوا في
موضوع الاختيار الإلهي للنبي المصطفى وهم
الذين لم يبلغوا - لفساد نفوسهم، وتلوث
عقولهم، ورداءة طباعهم - أن يكونوا مجرد أتباع
لهذا النبي المختار!.

بل يبلغ بهم الشطط أن يطلبوا أن يكون كل فرد منهم بمنزلة الرسول: يأتيه الملك، وينزل عليه الوحي !، وكأن أحدا منهم لن يتبع أحداً!!.

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) (48).

لقد عظمت عندهم نفوسهم، وأنفوا من الاتباع لبشر مثلهم - ولو كان نبياً مؤيداً بالوحي من السماء - وطلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، أو يروا الله عياناً، فكان عاقبتهم أن يعذبوا في الدنيا والآخرة صاغرين، ويدخلوا جهنم داخرين، كما قال تعالى هنا: **(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ...)**، وقال سبحانه في آية أخرى: **(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) (49).**

إذاً، فهؤلاء المستكبرون يرفضون - أصلاً - طاعة بشر مثلهم، شأن المكذبين من الأمم الأخرى الذين يقولون: **(وَلَيْنُ أَطَعْنُمُ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ) (50).**

وإذا جاء هذا الرسول من البشر فهل كان من عليّة القوم، ومشيختهم، وأصحاب الرئاسة فيهم، حتى يكون -عندهم- جديرًا بأن يُتبع، ويُطاع؟! وهذه لا تعدو أن تكون تَعَلّات يتعلّل بها المعارضون المكذبون، ويدفعون بها الحق الذي يحمله الرسول.

ولذلك تجد المعارضين للدعوة، المنتسبين للبطن الذي ينتسب إليه الرسول عليه الصلاة والسلام يحتجون بعدم كون الرسول صلى الله عليه وسلم شيخًا ذا رئاسة وتقدم فيهم، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الدعوة حماية لمركزهم ومنافستهم، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظًا على مكانة قبيلتهم، وأنفة من اتباع فرد من قبيلة أخرى!.

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: "إن أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل: **"يا أبا الحكم، هلم إلى الله وإلى رسوله، إني أدعوك إلى الله،** فقال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منتبه عن سب آل هنتا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله لو أنني أعلم أن ما تقول ^{حق} ما تبعتك!."

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل علي فقال: والله إني لأعلم ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، قالوا: فينا الندوة، قلنا: نعم، قالوا: فينا اللواء، قلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم. ثم أطعموا، وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي! فلا والله لا أفعل⁽⁵¹⁾!"

وهكذا ينكشف الغطاء، وينجلي الأمر!

فالقضية في حسّ أبي جهل وأضرابه هي صراع قبلي على الشرف والسيادة، وقد استأثر فيها بنو قصي بالحجابه، والسقاية، والندوة، واللواء.. فلا يمكن أن يستأثروا بالنبوة؛ لأن معنى ذلك أن تنقاد لهم قريش؛ بل العرب كلها.

وبشبه هذه القصة خبر استماع أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق للقرآن ليلة بعد ليلة، فلما أصبح الأخنس أتى أبا جهل، فقال له: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: ماذا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟! والله لا نسمع أبدًا، ولا نصدق، فقام عنه الأخنس بن شريق⁽⁵²⁾.

لقد كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم صعبة عسيرة في وسط كهذا الوسط القبلي الذي يحتفل كل الاحتفال بالمركز العائلي، وتتنافس فيه القبائل تنافسًا مريبًا على الشرف والسيادة.

فالأقربون لا يتبعونه لأنه ليس من المشيخة
الأكابر، وغيرهم لا يتبعه لأنه ليس من البطن،
والقبيلة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما
نزلت **(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)** ⁽⁵³⁾ صعد
النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل
ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش،
حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن
يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب،
وقريش فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً
بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟
قالوا: نعم. ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني
نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب:

تَبَّ
مَا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلْهَذَا جَمَعْتُنَا؟ فَنَزَلَتْ: **(تَبَّ**
يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ) ⁽⁵⁴⁾ ⁽⁵⁵⁾.

ومنذ هذا البلاغ انقسمت الدنيا إلى معسكرين: معسكر الكفر والشرك، ويقف فيه الناس كلهم: عربهم وعجمهم، ملوكهم وسُوقتهم، قريتهم وبعيدهم، والمعسكر الآخر: معسكر الإيمان، ويقف فيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ما معه فيه إلا حر وعبد و غلام وامرأة⁽⁵⁶⁾! - ممن ضحوا في سبيل الدين بالغالي والنفيس-، وكفى بهذه غربة.

ومن البدهي أن المشركين من قريش، وأهل مكة خاصة؛ كان لهم دور كبير في حجب أنوار الدعوة عن الآخرين، وهذا ما سأعرض له في السبب الخامس.

خامسًا: التأثير البالغ لموقف قريش على العرب:

فلقد كان لموقف قريش الرفض للدعوة أثر عظيم في امتناع سائر العرب عن قبول الدعوة، حتى ولو لم تبذل قريش أي جهد في مقاومة الدعوة وتشويه صورة الداعية في نفوس الناس؛ لأن الناس كانوا يتطلعون إلى موقفها وينتظرون قرارها، وذلك لأسباب منها:

(أ) مكانة قريش في نفوس العرب، فقد كان العرب يعظمون أهل بيت الله، ويمنحونهم الإجلال والإكبار؛ لقيامهم على البيت، ووفائهم بما يحتاجه قصاده من الطعام والشراب وغيره، وتسابقهم في ذلك، وتنافسهم عليه.

وكان لقصي بن كلاب دور عظيم في ترسيخ هذه المكانة، وتعميق جذورها حيث جمع قريشاً في مكة، ووطد مكانتها، وانتزع سدانة البيت من جرهم بعد حروب طاحنة، واختط لقريش خطة الشرف والسيادة؛ ولذلك يقول فيه الشاعر:

وزيد أبوكم كان يدعى مُجَمَّعا
به جمَّع الله القبائل من

فهر (57)

وكان لحماية الله بيته من أبرهة وجيشه، وإهلاكهم بالصورة التي ذكرها الله في القرآن؛ أثر مضاعف في حرمة البيت، وقداسته عند العرب، ومن ثم في حرمة جيرانه وسدنته، وهذا جعل القرشيين يسرون حيث شاءوا في بلاد العرب؛ آمنين من غارات السلب والنهب المتي كان يشنها اللصوص، والصعاليك، وقطاع الطرق، حيث تحميهم القبائل، وتجز قوافلهم، ومن ثم كانت رحلة الشتاء والصيف: إلى اليمن والشام، وهذا أنعش تجارة قريش، ودعم اقتصادها.

لهذا - ولغيره - كانت العرب تنظر إلى قريش نظرة تقديس وتعظيم وامتيار، وكانت قريش - من حيث الجملة - جديرة بهذه المكانة؛ لما منحها الله من الخصائص الفطرية، والميزات الذاتية. ويدل لذلك أن الإسلام جاء بدعم مكانة قريش، وحصر الخلافة فيها، وأن الله ذكرهم في القرآن الكريم بما أمتن به عليهم من هذا الحرم الآمن، حيث يتخطف الناس من حولهم، وأنه جعله مثابة للناس وأمناً، وحرك أفئدة الناس تهوي إليه، وتجيى إليه ثمرات كل شيء، وأنه حفظه من الأحباش وغيرهم، وحفظ أهله به.

وكانت في قريش زعامات تحمي المظلوم،
وتعين المحتاج، وتمنع الظالم، كما يظهر في
حلف الفضول الذي عقد في دار (عبد الله بن
جدعان)⁽⁵⁸⁾.

ولذلك كله، فإن العرب كانت تتربص
بإسلامها إسلام هذا الحي - من قريش - فلما
رأت صدودهم عن الدعوة، وزيادتهم بها؛
انصرف عنها، ولم تأبه لها - إلى حين -.

(ب) ويضاف إلى تأثير تلك المكانة الخاصة
التي تبوأتها قريش عند
العرب أن الرسول المبعوث عليه صلوات الله
وسلامه كان من قريش نفسها، وكان منطق
العرب يقول: إن القبيلة أعلم وأدري بصاحبها
وأخبر بشأنه، فلم تكن لفتات عليهم فيه.

فلم تكذب قبيلة من قبائل العرب تفكر - أول
الأمر - بالاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه
وسلم أو إيوائه، وهذه قبيلة قريش ترفض دعوته،
وتعرض عنها... وهي قريش ذات المكانة
والسؤدد! وهي قبيلته التي تعرفه حق المعرفة!

(ج) هذا لو لم يكن من قريش إلا مجرد الإعراض عن الدعوة، وعدم قبولها، فكيف إذا انضم إلى ذلك الحرب الإعلامية التي شنتها على الدعوة وصاحبها، والحصار الذي ضربته عليها بكل وسيلة؟!

فلقد كان زعماء قريش يجتمعون ليتدارسوا ما يقولون في شأن هذا القرآن، وما يقابلون به وفود العرب القادمين إلى مكة في الموسم، ويحاولون أن يتفقوا على كلمة واحدة في شأن هذا القرآن، وشأن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم⁽⁵⁹⁾.

قال تعالى: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)⁽⁶⁰⁾.

قال المفسرون: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي، وما قاله بشأن القرآن، حيث زعم أنه سحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم نقل هذا السحر وأثره عن غيره⁽⁶¹⁾.

ولم تكتف قريش ببحث الشائعات، وإطلاقها من مكة؛ بل كانت تلاحق الداعي المختار صلى الله عليه وسلم حيثما ذهب، وتجنّد من سفهائها -من ذوي الأحلام الطائشة، والنفوس الموتورة- ليسيئوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويشوهوا سمعته بين القبائل؛ كيلا يجرؤ أحد على إيوائه، أو اتباعه.

عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: **يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا.** ويدخل في فجاجها، والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا، وهو لا يسكت يقول: **أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.** إلا أن وراءه رجلًا أحول، وضياء الوجه، ذا غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد ابن عبد الله، وهو يذكر النبوة، قلت: من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب.

قلت⁽⁶²⁾: إنك كنت يومئذ صغيرًا؟ قال: لا والله إنني يومئذ لأعقل⁽⁶³⁾.

وعن طارق بن شدداد رضي الله عنه قال:
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين:
رأيتَه بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمر
وعليه حلة حمراء، فسمعتَه يقول: **أيها الناس،
قولوا: لا إله إلا الله تغلحوا.** ورجل يتبعه
يرميه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه، وهو يقول: يا
أيها الناس، لا تطيعوا هذا؛ فإنه كذاب، فقلت: من
هذا؟ ف قيل: هذا غلام من بني عبد المطلب،
فقلت: من هذا الذي يرميه بالحجارة، ف قيل: عمه
عبد العزى - أبو لهب بن عبد المطلب-⁽⁶⁴⁾.

وعن شيخ من بني مالك بن كنانة رأى النبي
صلى الله عليه وسلم بسوق ذي المجاز يتخللها،
يقول: **"أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله
تغلحوا"**. قال: وأبوجه لم يحثي عليه التراب،
ويقول: أيها الناس، لا يغرنكم هذا عن دينكم،
فإنما يريد لتتركوا آلهتكم، وتتركوا اللات والعزى،
قال: وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

قال⁽⁶⁵⁾: قلنا: انعت لنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم، قال: بين بردين أحمرين،
مربوع، كثير اللحم، حسن الوجه، شديد سواد
الشعر أبيض شديد البياض، سابغ الشعر⁽⁶⁶⁾.

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين، يتبع الناس في منازلهم، في الموسم، ومجنة، وعكاظ، ومنازلهم من منى: من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالات ربي، فله الجنة، فلا يجد أحدًا ينصره، ولا يؤويه؛ حتى إن الرجل ليرحل من مضر، أو من اليمن، إلى ذوي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع⁽⁶⁷⁾.

وهذه القصص تكشف عن الجهد البالغ الذي كانت قريش تبذله في تحذير الناس من الدعوة ومن صاحبها، وهو جهد فردي وجماعي، يتولاه الكبار كأبي جهل وأبي لهب، على مستوى القبائل كلها، وتتولاه كل قبيلة فيما يتعلق بأفرادها. وما أشقها على النفس!.

محمد صلى الله عليه وسلم المكلف بتبليغ
دعوة الله - يغشى الناس في أسواقهم
ومنتدياتهم، ويتخلل منازل الحجيج بمنى، يعرض
ما عنده عليهم- بالكلمة الطيبة، ولا يكره أحدًا
على شيء سوى أن يدعوهم إلى كلمة التوحيد،
وإلى نصرته وحمایته، وهو وحيد غريب، فينبري له
أقرب الناس إليه، يطارده أمام الملاء المتقصفين
عليه، الناظرين إليه، يرميه بالحجارة، حتى يدمي
عقيه وعرقوبيه! ويضرب بالتراب على رأسه،
ووجهه وصدره! ويصفه بالكذاب وهو الذي لم
تؤثر عنه كذبة واحدة طيلة عمره! ويحرض الناس
على مباعده؛ لأنه يدعوهم إلى ترك اللات،
والعزى، وما عليه الآباء، والأجداد، وترك حلفائهم
من الجن من بني مالك بن أقيش!! إن هذا لهو
البلاء المبين!.

وإن هذه لهي الغربة الحقيقية، تحكم خناقها على الداعية الأول صلى الله عليه وسلم، ثم على من معه من القلة المستضعفة بمكة وما حولها، بأيدي الأقربين قبل الأبعداء، الأقربين الذين كان يخاطبهم صلى الله عليه وسلم أن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة بترك إيدائه إذ لم يستجيبوا لدعوته، وهم كانوا أولى الناس بقبول الدعوة، وحمایتها. **(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)** ⁽⁶⁸⁾.

ولم يكن بطن من بطون قريش، إلا وبينهم وبين الرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، فكان واسط النسب فيهم، ليس من حي منهم إلا قد ولدوه.

فلما كذبوه وأبوا عليه التمس منهم أن يحفظوا قرابته فيهم، فلا يكون غيرهم من العرب أولى بحفظه، ونصرته، وحمایته.

عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله: **(إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)** فقال سعيد بن جبیر: "قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس: عجالت، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: **إِلَّا أَنْ تَصَلُّوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ**" (69).

فلم تستجب قريش لهذا، ولا لذلك، ولم ترض أن يجد الرسول صلى الله عليه وسلم من يؤويه، ويحميه، من القبائل الأخرى. وقد استبد بطغاتها وهُمَّ حَيٍّ

لم لهم أن بإمكانهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأن يحجبوا الشمس بأيديهم الصغيرة، وأن يئدوا هذه الدعوة في مهدها، ولكن هيهات!! **(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۖ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۖ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)** (70).

لقد عاش صلى الله عليه وسلم تلك السنين العجاف، البداية المحرقة التي كانت - بإذن الله - سبباً للنهاية المشرقة.

سادسًا: وقوع المؤمنين تحت سلطة الكفار من قومهم:

وأمام ذلك الكيد الجاهلي الدائب، كان يقف الرسول صلى الله عليه وسلم أعزل من كل سلاح إلا سلاح الإيمان بالله، والثقة بوعده، أعزل من كل قوة إلا قوة العزيمة، والإصرار، والمضاء، والتصميم.

ولم يكن يملك صلى الله عليه وسلم أن يدفع عن أتباعه المستضعفين شيئًا من العذاب الذي ينزله بهم قومهم دون رحمة ولا هودة، إذ كان أتباعه - مع قتلهم - أفرادًا متفرقين من قبائل شتى، فكانوا يشاركونه صلى الله عليه وسلم غربته، ويقاسمونهم مصاعبها، فلا يملكون - في كثير من الأحيان - أن يعلنوا إسلامهم، فضلًا عن أن يدعوا إليه فكانوا غرباء في قبائلهم، وبين قومهم، وكان قائدهم صلى الله عليه وسلم هو الآخر غريبًا في قبيلته، وبين قومه.

ذلك أنه لم يكن للإيمان موطن يفىء إليه، ولا للمؤمنين قبيلة تدفع عنهم؛ فكان من أسلم يبقى في قومه - خاصة إذا لم يكن في مكة - مستخفياً ينتظر ظهور أمر النبي صلى الله عليه وسلم واستقراره في مهجر، كما في قصة عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وسيأتي تفصيلها في موضعها - إن شاء الله -.

وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مضطراً إزاء إيذاء المشركين، واضطهادهم لأتباعه - خاصة من المكيين -؛ أن يبحث عن حل مؤقت يحمي أتباعه من الفتنة والتنكيل - وكانت الحبشة آنذاك تتمتع بحكم عادل، في ظل ملك لا يسمح بالظلم، ولا يقره، وهو النجاشي، ومن هنا جاءت الهجرة إلى الحبشة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار: بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى بلغ بَرَك الغماد⁽⁷¹⁾، لقيه ابن الدغنة⁽⁷²⁾ - وهو سيد القارة - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي! فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يُخْرَج ولا يُخْرَج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل

، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر لا يُخْرَج مثله، ولا يُخْرَج، أخرجون رجلًا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمي الكل

، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن

به فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا، فقال ذلك
ابن الدغنة لأبي بكر... الحديث⁽⁷³⁾.

وإدًا، فإن أبا بكر - وهو من هو كما يدل على
ذلك موقف ابن الدغنة، واستجابة قريش له -
يصرح بأن قومه أخرجوه، فهو يريد أن يسيح في
أرض الله - ولم يصرح بمقصده - وأن يعبد ربه.

وللمكانة التي كانت لأبي بكر في نفوس
أهل مكة؛ كان إيذاؤهم له من نوع خاص، وكان
على شاكلته عدد من الذين هاجروا فعلاً إلى
أرض الحبشة كما يتضح من استعراض
أسمائهم⁽⁷⁴⁾.

ولكن غالبيتهم كانوا يواجهون الأذى الحسي
بأنواعه، والضرب والتنكيل، والفتنة، ولهذا
أمرهم صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى
الحبشة.

عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره، مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه"**، فخرجنا إليها أرسالاً، حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظمًا⁽⁷⁵⁾...

ولا شك أن بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الحبشة هو نوع من الاستفادة من بعض الظروف والفرص السياسية في تحقيق مكاسب للدعوة، وفي تجاوز بعض الصعوبات التي تواجه أصحابها.

ولكن اضطرار الرسول عليه الصلاة والسلام
إلى هذا الأمر كان ناتجاً عن عدم وجود مستقر
للدعوة يأوي إليه المهاجرون، فكان اغتراب
المهاجرين الأولين اغتراباً

حسباً
مع تمتعهم بالحرية الدينية، وسلامتهم من الأذى
والاضطهاد... هو الحل المناسب لتلك المرحلة
حتى يأذن الله بإعزاز الإسلام وقيام دولته.

لهذه الأسباب ولغيرها، واجه الرسول صلى
الله عليه وسلم وأصحابه ودعوته غرباً شديدة
مستحكمة في مطلع الدعوة، تمثلت في مظاهر
شتى، وحفظت لنا الروايات والأخبار الصحيحة
منها الكثير الكثير...

وهذا ما سيتحدث عنه الفصل الثاني المتعلق
بمظاهر الغربة، ونماذج لها.

* * *

هوامش الفصل الأول

1 إن تسجيل هذه الأسباب نوع من الاستقرار الموضوعي الذي لا يد

عى فيها الحصر، بل هو اجتهاد من المؤلف، نظرًا لعدم الاطلاع على كتابة في هذا الموضوع نفسه، والله أعلم.

2 سورة السجدة: آية 3 .

3 سورة يس: آية 6.

4 ذكره السيوطي في الدر المنثور، ونسبه لابن المنذر: (6/537).

5 رواه ابن جرير في تفسيره: (22/150)، ونسبه السيوطي لعبد بن حميد وابن المنذر. الدر المنثور: (7/42).

6 سورة سبأ: آية 44.

أما الجمع بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ).. سورة فاطر: آية 24، وما أشبهها.

فقد اختلفوا فيه، والذي يظهر أن الآيات المثبتة هنا على ظاهرها في نفي مجيء الرسل، ونزول الكتب على جنس العرب، وأن قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) يعني: أمة من الأمم الأخرى غير الأمة التي بُعثت فيها يا محمد؛ لأنه ذكر إرساله صلى الله عليه وسلم بالحق بشيرًا ونذيرًا في العرب، ثم بين أن هذه سنته تعالى في خلقه؛ أن يبعث فيها الرسل مبشرين ومنذرين، فكأن المعنى: ما من أمة من الأمم إلا بعثنا فيها نذيرًا ينذرنا، إلا هذه العرب، فبعثناك فيهم، والله أعلم. وانظر في هذا: تفسير البغوي: (3/497)، روح المعاني للآلوسي: (117/11-119)، تفسير ابن كثير: (3/542)، (552).

7 سورة الأنعام: الآيات 155-157.

رواه البخاري في: 35- كتاب الحج، 54- باب من
كَبَّ

_____ ر ف ي ن و ا ح ي الكعبة: (2/160)، وفي: 60- كتاب الأنبياء، 8- باب قول الله تعالى (وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا): (4/111).

وفي: 64- كتاب المغازي، 48- باب أين ركز صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟: (5/93). ورواه الإمام أحمد في مسنده: (1/334-365).

وجاء عن ابن عباس من طريق أخرى، وفيه: "وجد فيه صورة إبراهيم، وصورة مريم..".

ورواه البخاري في الموضع نفسه من كتاب الأنبياء (وراجع في هذه الإحالة البخاري المطبوع مع فتح الباري، بالمطبعة السلفية (6/387)، عن ابن عباس قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم.. ورواه الإمام أحمد أيضا: (1/277).

أما قول ابن عباس رضي الله عنه: -ولم يصح فيه-، فالمرجح في ذلك رواية ابن عمر بن بلال رضي الله عنه؛ لأنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف نفسه، وقد أثبت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة.

وقد أخرج الحديث: البخاري: 35 - كتاب الحج، 52 - باب الصلاة في الكعبة: (2/160).

ومسلم في: 15 - كتاب الحج، 68 - باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره، والصلاة فيها..، رقم (388-394)، (2/966) وغيرهما. رواه البخاري في: 46 - كتاب المظالم، 32 - باب هل تكسر المدنان التي فيها الخمر..، (3/108).

وفي: 64 - كتاب المغازي، 48 - باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح؟: (93-5/92).

وفي: 65 - كتاب التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل، 12 - باب (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ)، (5/228).

ومسلم في: 32 - كتاب الجهاد والسير، 32 - باب إزالة الأصنام من حول الكعبة، رقم (87): (3/1408).

والترمذي في: 48 - كتاب تفسير القرآن، 18 - باب ومن سورة بني إسرائيل رقم (3138)، (5/303)، وقال: حديث حسن صحيح، وفي الباب عن ابن عمر. وأحمد في مسنده: (1/377-378).

وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب المغازي (2435)، حديث فتح مكة، رقم (18752)، (14/488).

قوله تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)، هو في سورة الإسراء، آية رقم 81.

وقوله سبحانه: (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)، هو في سورة سبأ، آية 49.

() انظر: (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) للإمام ابن القيم: (2/225).

هو: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، الأصولي الفقيه، من أئمة المالكية، مؤلف كتاب الموافقات والاعتصام وغيرهما، وأحد مجدد علم الشريعة، توفي سنة (790هـ).

انظر ترجمته في: برنامج المجاري: ص (116-122)، وكتب له الأستاذ محمد أبو الأجفان ترجمة موسعة في مقدمة كتاب (فتاوى الإمام الشاطبي)، ص (21-64).

كذا في المطبوع.

سورة ص: آية 5.

سورة العنكبوت: آية 65.	15
سورة ق: آية 3.	16
سورة الأنفال: آية 32.	17
ما بين القوسين زدته لظني أن السياق يقتضيه.	18
سورة الكافرون: الآيات 1-6.	19
الاعتصام للإمام الشاطبي: (21-1/19).	20
سورة يونس: آية 78.	21
سورة الشعراء: الآيات 70-74.	22
سورة الشعراء: الآيات 75-77.	23
سورة الأنبياء: آية 54.	24
سورة الممتحنة: آية 4.	25
سورة المائدة: آية 104.	26
سورة البقرة: آية 170.	27
سورة الأعراف: آية 28.	28
سورة لقمان: الآيتان 20، 21.	29
سورة الزخرف: الآيات 21-24.	30
الطَّ	31
وَل: هو الحبل.	
معنى "وَقَصَّتْهُ": أي سقط عنها فاندقت عنقه فمات. انظر: النهاية (	32
5/214).	
رواه النسائي في: 24- كتاب الجهاد، 19- ما لمن أسلم وهاجر	33
وجاهد (22-6/21)، وهذا لفظه.	
والإمام أحمد في مسنده: (3/483).	

وابن حبان - كما في الموارد -: 26 - كتاب الجهاد، 3 - باب في فضل الجهاد، رقم (1601)، ص (385).

كلهم من طريق هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل عبد الله بن عقيل، حدثنا موسى بن المسيب، عن سالم بن أبي الجعد، عن سيرة.

وهاشم بن القاسم، أبو النضر: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (11/18)، التقريب (2/314).

وأبو عقيل الثقفي، هو عبد الله بن عقيل، وهو صدوق. انظر: التهذيب (5/323)، التقريب: (1/434).

وموسى بن المسيب الثقفي، أبو جعفر الكوفي البزار: صدوق، انظر: التهذيب: (10/372)، التقريب: (2/288).

وسالم بن أبي الكجد: ثقة كثير الإرسال. انظر: التهذيب (3/432)، التقريب: (1/279). فالحديث بهذا الإسناد حسن.

وقال الحافظ ابن حجر عن رواية النسائي: "بإسناد حسن إلا أن في إسناده اختلافاً"، الإصابة ترجمة رقم (3080)، (4/120)، ولم يتبين لي وجه الاختلاف.

وقد رواه الطبراني في الكبير: (657)، سيرة بن أبي فاكه برقم (6558)، (7/138)، من طريق محمد بن فضيل عن موسى بن سالم.

وفي المسند المطبوع تحرف اسم أحد الرواة من (موسى بن المسيب) إلى (موسى بن المثنى).

رواه ابن إسحاق في السير والمغازي، ص (229)، وهو في السيرة لابن هشام: (1/309).

ومن طريقه رواه:

الإمام أحمد في مسنده: (2/218).

والطبري في التاريخ (2/332).

والبيهقي في الدلائل، باب ذكر ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.. (2/275).

من طريق يحيى بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة صدوق إذا سلم من التدليس، وقد صرح بالتحديث ها هنا.

انظر: سير أعلام النبلاء: (7/33-55)، التهذيب: (9/38-46)، التقريب: (2/144).

ويحيى بن عروة: هو ابن الزبير: ثقة. انظر: التهذيب: (11/258)، التقريب: (2/354)، وأبو عروة: ثقة فقيه مشهور. انظر: التهذيب: (7/180)، التقريب: (2/19).

فالحديث بهذا الإسناد حسن.

والحديث ثابت في الصحيح وغيره مختصراً من طريق محمد بن إبراهيم التيمي:

رواه البخاري في: 62- كتاب فضائل الصحابة، 5 - باب قوله صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذاً خليلاً: (4/197).

63- مناقب الأنصار، 29- باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.. (4/240).

65- كتاب التفسير، 40- باب سورة المؤمن: (6/34).

وأحمد في المسند: (2/204).

والبيهقي في الدلائل، باب ذكر ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.. (2/275).

وله شواهد منها:

- 1- عن عمرو بن العاص:
عند البخاري تعليقاً في: (4/240).
وعند أحمد في فضائل الصحابة، برقم (639)، (1/412).
والبیهقي في الدلائل: ص (2/276 ، 277).
وأبي نعيم في الدلائل: ص (165).
وابن أبي شيبه في المصنف: (14/297).
وابن حبان، كما في الموارد، رقم (1685)، ص (407).
ونسبه المزي في التحفة للنسائي في التفسير في الكبرى، رقم
الحديث في التحفة (10739)، (8/155).
ونسبه ابن كثير لابن أبي حاتم وساقه بإسناده، تفسير سورة
المؤمن (4/77).
عن أنس عند الإمام أحمد في فضائل الصحابة، برقم (218)، (1/200).
- سورة ص : الآيتان 6، 7. 35
- انظر: تفسير الطبري: (23/126)، والدر المنثور: (7/146). 36
- سورة النساء: الآيتان 51، 52. 37
- سورة الكوثر: آية 3. 38
- رواه الطبري في تفسيره: (5/133) تفسير سورة النساء. 39
- وذكره ابن كثير في التفسير: (1/513) وعزاه إلى الإمام أحمد
مسنداً، ولم أجده في المسند - مسند ابن عباس - بعد البحث.
وابن حبان - كما في الموارد -:- 28- كتاب التفسير، سورة النساء
رقم الحديث (1731)، ص (428).

ونسبه السيوطي لأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم، المدر المثنور: (2/562).

ومدار إسناد الطبري وأحمد وابن حبان على محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة عن ابن عباس.

ومحمد بن أبي عدي: هو محمد بن إبراهيم بن أبي عدي: ثقة. انظر: التهذيب: (9/12)، التقريب: (2/141).

وداود: هو ابن أبي هند: ثقة متقن، كان يهمل بآخريه. انظر: التهذيب (3/204)، التقريب: (1/235).

وعكرمة: هو ابن عبد الله، مولى ابن عباس: ثقة ثبت. انظر: التهذيب (7/263)، التقريب: (2/30). فالإسناد صحيح.

وقد ورد معناه عن جابر وأبي مالك.

وورد مرسلًا عن عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم.

انظر: تفصيل رواياتهم في: الطبري: (5/133-135)، والدر المثنور: (2/562-564).

انظر: تفسير الطبري: (5/133)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (2/680).

وهذا هو موقفهم من الدعوة الإسلامية في هذا الزمان، وفي كل زمان، حيث يلصقون بها ألوان التهم والإشاعات، ويتحالفون حتى مع الشياطين في حربها والقضاء عليها.

سورة الأحزاب: الآيتان 10، 11.

أخرجه البخاري: في 56 - كتاب الجهاد والسير، 181 - باب كتابة الإمام الناس: (4/34) وفيه: ونحن ألف وخمس مئة، وفي رواية: ما بين ست مئة إلى سبع مئة.

ومسلم في: 1 - كتاب الإيمان، 67 - باب الاستسرار بالإيمان للخائف، رقم (235) (1/131-132)، وهذا لفظه.

40

41

42

43

وابن ماجه في: 36 - كتاب الفتن، 23 - باب الصبر على البلاء رقم (4029)، (2/1336).

وأبو عوانة في مسنده، بيان أن الساعة لا تقوم ما دام في الأرض من يوحد الله.. (1/102) وزاد في إحدى روايته: "فكتبناهم فوجدناهم خمس مئة..".

وأحمد في مسنده: (5/384).

وانظر للجمع بين روايات الحديث، وتحديد متى كان ذلك الابتلاء: فتح الباري: (6/178)، شرح النووي على مسلم: (2/179)، فتح الملهم شرح صحيح مسلم لشبير أحمد العثماني: (1/182).

تفسير الطبري: (21/133).

يُزَنُّ: يتهم. انظر المعجم الوسيط مادة (ز ن ن) (1/418).

سورة الزخرف: آية 31.

راجع هذه الروايات في: تفسير الطبري: (65/25-66).

سورة الأنعام: آية 124.

سورة الفرقان: آية 21.

سورة المؤمنون: آية 34.

رواه يونس بن بكير في زوائده على السير والمغازي لابن إسحاق، باب أحاديث الأخبار وأهل الكتاب، بصفة النبي صلى الله عليه وسلم ص (210).

ومن طريقه رواه البيهقي في دلائل النبوة، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز.. (2/207).

من طريق هشام، عن زيد بن أسلم، عن المغيرة.

ويونس بن بكير: صدوق. انظر: التهذيب (11/434)، التقريب: ص (613) ط: محمد عوامة.

وهشام بن سعد، صدوق له أوهام، ومخالفته للثقات لا تحتمل، لكن قال عنه أبو داود: "أثبت الناس في زيد بن أسلم" وروايته هاهنا عن زيد بن أسلم. انظر: التهذيب (11/39)، والتقريب (2/318).

وزيد بن أسلم: ثقة عالم. انظر: التهذيب (3/395)، التقريب: (1/272).. فالحديث - بهذا الإسناد - حسن.

رواه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (1/337)، قصة استماع قريش إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم قال: حدثني محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري أنه حدث... وهو في السير والمغازي ص (189).

ومن طريقه البيهقي في الدلائل، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز.. (2/206).

فهو من مراسيل الزهري، قال أحمد بن سنان: كان يحيى بن سعيد لا يرى إرسال الزهري وقتادة شيئاً، ويقول: هو بمنزلة الريح... ولكن يشهد لمعناه الحديث السابق قبله.

سورة الشعراء: آية 214.

سورة المسد: الآيتان 1، 2.

رواه البخاري في: 61 - المناقب، 13 - باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية: (4/161).

وفي: 65 - كتاب التفسير، سورة الشعراء، 3 - قوله: وأنذر عشيرتك الأقربين، (6/16).

وفي: 65 - كتاب التفسير، سورة تبت يدا أبي لهب وتب (6/94).

ومسلم في: 1 - كتاب الإيمان، 89 - باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين، رقم الحديث - (355)، (1/193).

والإمام أحمد في مسنده: (1/307).

والطبري في التفسير - تفسير سورة

ت: (30/336 - 337).

والبيهقي في دلائل النبوة، باب ما رد أبو لهب على النبي صلى الله عليه وسلم (2/181).

وأبو عوانة في: الإيمان - بيان أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (1/92).

وله شواهد منها:

1- عن أبي هريرة: رواه البخاري في (3/190) ، (4/161).

وفي: التفسير: (6/16). ومسلم في: (1/193)، والنسائي في (250-6/248)، والدارمي في: (2/215)، وأبو عوانة في (1/93-95).

2- عن عائشة: رواه أبو عوانة في: (1/95).

3- عن قبيصة بن مخارق، وزهير بن عمرو، والأشعري، عند أبي عوانة أيضًا.

سيأتى تفصيل ذلك في الفصل الثاني - من هذا الباب - المتعلق بمظاهر الغربة.

56

البيت لمطرد بن كعب الخزاعي، انظر: التبيين في أنساب القرشيين، لابن قدامة المقدسي (ص 37)، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (1/355).

57

هو: عبد الله بن جُدعان: بضم الجيم وسكون الدال المهملة - من بني تميم بن مرة، وكان من رؤساء قريش، وصولاً للرحم، منفقاً، جواداً، محباً للسلام. انظر: المنمق لابن حبيب: (171-172، 464)، وشرح النووي على مسلم: (3/87)، وسيرة ابن كثير: (1/116-118).

58

وانظر في خبر حلف الفضول: المنمق: (45-51، 217-222، 335-344)، سيرة ابن هشام: (1/140).

وانظر الرواية في شهود النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف في المنمق أيضًا، وفي: تفسير الطبري، تفسير سورة النساء: (5/56).

وقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين". كتاب الإيمان، 92- الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، رقم (365)، (1/196).

انظر: سيرة ابن هشام: (1/499)، والسير والمغازي لابن إسحاق ص (150-152)، والطبري في التفسير- سورة المدثر: (29/156-157)، والدلائل للبيهقي: (2/200).

وفيها: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إلى نفر من قريش - وكان ذا سن فيهم - فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قول بعضكم بعضًا.. الخ.

وقد رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد -مولى زيد بن ثابت- قال الذهبي: لا يعرف. الميزان: (4/26)، التهذيب: (9/433).

سورة المدثر: الآيات 11-25.

الطبري: (29/156)، تفسير ابن كثير: (4/442)، القرطبي: (19/71)، الدر المنثور: (8/329) وغيرها..

القائل هو الراوي عن ربيعة وهو أبو الزناد: عبد الله بن ذكوان.

رواه الإمام أحمد في المسند: (3/492).

والبيهقي في الدلائل: باب قول الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) (2/186).

من طرق كثيرة عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن ربيعة.
وعبد الرحمن: صدوق تغير حفظه لما قدم بغداد، فرواية البغداديين
عنه ضعيفة.

انظر: تاريخ بغداد (10/228)، التهذيب: (6/170)، التقريب (1/480).

وأبوه هو عبد الله بن ذكوان: ثقة فقيه. انظر: التهذيب: (5/203)،
التقريب: (1/413).

فالحديث: - بهذا الاسناد- حسن؛ لأنه رواه عنه البغداديون -كما في
معظم الطرق-، ورواه عنه المدنيون -كما في إحدى روايتي البيهقي
حيث رواه عنه إسماعيل ابن أبي أويس، وهو مدني صدوق من
رجال الشيخين. انظر: التهذيب (1/310)، التقريب (1/71).

وقد جاء من طرق أخرى كثيرة:

فرواه الإمام أحمد: (3/492)، (4/341 ، 342-341).

و الطبري في التاريخ (2/348).

من طريق ابن إسحاق، قال: حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله
بن العباس، قال: سمعت ربيعة بن عباد.

وابن إسحاق: صدوق مدلس، وقد صرح بالتحديث، ومضى.

وحسين بن عبد الله: ضعيف. انظر: التهذيب: (2/341)، التقريب: (1/176).

ورواه الإمام أحمد: (3/492).

والحاكم في المستدرک: (1/15) وقال: صحيح على شرط
الشيخين، ورواه عن آخرهم ثقات أثبات.

من طريق سعيد بن سلمة -يعني ابن أبي الحسان-، حدثنا محمد بن
المنكدر، أنه سمع ربيعة..

وسعيد بن سلمة: صدوق صحيح الكتاب، يخطئ من حفظه. انظر: التهذيب: (4/41)، التقريب (1/297).

ومحمد بن المنكدر: ثقة فاضل. انظر: التهذيب: (9/473)، والتقريب: (2/210).

ورواه الإمام أحمد في المسند: (3/492)، من طريق مصعب الزبيري، حدثني عبد العزيز بن محمد بن أبي عبيد، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد القرظي، عن ربيعة.

ومن طريق سريج بن يونس، حدثنا عباد، عن محمد بن عمرو، عن محمد بن المنكدر، فيما يظن عباد بن عباد، عن ربيعة.

ومن طريق محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا محمد بن عمرو، عن محمد بن المنكدر، عن ربيعة.

رواه ابن إسحاق في السيرة: قصة النبي صلى الله عليه وسلم لما عرض نفسه على العرب: ص (232). وابن أبي شيبة في المصنف: كتاب المغازي، باب في أذى قريش للنبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث (18414) (14/300).

وابن خزيمة في صحيحه: كتاب الوضوء، 124 - باب ذكر المدليل على أن الكعبين.. العظمان الناتئان في جانب القدم..، رقم (159)، (1/82).

وابن حبان - كما في الموارد: 27 - كتاب المغازي والسير، 1- باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام..، رقم الحديث (1683)، ص (406).

والحاكم في المستدرک: كتاب التاريخ، أخبار النبي صلى الله عليه وسلم، (2/612) وقال: هذا صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

والبيهقي في السنن: كتاب الطهارة، باب الدليل على أن الكعبيين هما الناتئان في جانب القدم، (1/76).

كلهم من طريق يزيد بن زياد بن أبي الجعد، عن جامع بن شداد، عن طارق.

ويزيد: صدوق. انظر: التهذيب: (11/328)، التقريب (2/364).

وجامع بن شداد: هو المحاربي، ثقة. انظر التهذيب: (2/56)، والتقريب: (1/124). فالحديث - بهذا الإسناد - حسن.

القائل: هو أشعث بن سليم، وتأتي ترجمته.

رواه الإمام أحمد في المسند: (4/63)، (5/371، 376).

والبيهقي في الدلائل: باب قول الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) (2/186).

من طريق أبي النضر، قال: حدثنا شيبان، عن أشعث، قال: حدثني شيخ من بني مالك.

وأبو النضر: هو هاشم بن القاسم: ثقة ثبت، ومضى.

وشيبان: هو ابن عبد الرحمن التميمي - مولاهم - النحوي: ثقة. انظر: التهذيب (4/373)، التقريب: (1/356).

وأشعث: هو ابن أبي الشعثاء، واسم أبي الشعثاء: سليم بن أسود المحاربي، ثقة. انظر: التهذيب: (1/355)، التقريب: (1/79). فالحديث - بهذا الإسناد - صحيح.

وقد سمّت هذه الرواية الرجل: أبا جهل، خلافاً للروايات الأخرى قال ابن كثير: "وقد يكون وهماً، ويحتمل أن يكون تارة يكون ذا، وتارة يكون ذا، وأنهما كانا يتناوبان على إيذائه صلى الله عليه وسلم". السيرة النبوية: (2/157).

رواه أحمد في المسند: (3/322، 339).

وابن حبان - كما في الموارد: 27 - كتاب المغازي والسير، 2- باب البيعة على الحرب، برقم (1686)، ص (408).

والبزار - كما في كشف الأستار - : كتاب الهجرة والمغازي، باب البيعة على الحرب، برقم (1756) ، (2/307).

وقال: قد رواه غير واحد عن ابن خثيم، ولا نعلمه (عن) جابر إلا بهذا الإسناد.

والحاكم في: كتاب التاريخ: (2/624)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، جامع لبيعة العقبة، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والبيهقي في الدلائل: باب ذكر العقبة الثانية... (2/442).

وفي السنن: كتاب السير، باب الإذن بالهجرة، (9/9).

كلهم من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر.

وعبد الله بن عثمان بن خثيم: صدوق. انظر: التهذيب: (5/314)، والتقريب: (1/432).

وأبو الزبير هو: محمد بن مسلم بن تدريس المكي: صدوق مدلس، لا يقبل مما عنعن فيه إلا ما رواه الليث، حيث قال: قدمت مكة، فجئت أبا الزبير، فـ

إلى

كتابين، وانقلبت بهما، ثم قلت في نفسي، لو عاودته فسألته: أسمع هذا كله عن جابر؟ فرجعت فسألته، فقال: منه ما سمعت منه، ومنه

م

ح

ث عنه، فقلت له: أعلم لي على ما سمعت منه، فأعلم لي على هذا الذي عندي. انظر: التهذيب (9/440)، التقريب: (2/207).

وقد صرح أبو الزبير بالتحديث في رواية البيهقي.

فالحديث - بهذا الإسناد - حسن، وستأتي رواية أخرى شبيهة بهذه
عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر.

سورة الشورى: آية 23.

68

رواه البخاري في: 65- كتاب التفسير، 42- سورة حم عسق، 1-
باب قوله: (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)، (6/37)، وفي: 61- كتاب
المناقب، 1- باب (4/154).

69

والترمذي في: 48- كتاب التفسير، 44- باب: من سورة حم عسق،
رقم (3251)، وقال: حسن صحيح، (5/377).

والإمام أحمد في مسنده: (1/229).

والنسائي في الكبرى في التفسير كما في التحفة: (5/18).

والطبري في التفسير، تفسير سورة الشورى: (25/23).

والحاكم في مستدركه، من وجه آخر، كتاب التفسير: تفسير سورة
حم عسق: (2/444).

وعزاه الحاكم في مستدركه - في الموضع نفسه -، ثم السيوطي
في الدر المنثور: (7/345) إلى مسلم أيضاً، وخالفهما المزي، حيث
لم يعزّه إلى مسلم في مسند طاوس عن ابن عباس من تحفة
الأشراف: (31-5/3)، وكذلك ابن كثير في التفسير: (4/112) حيث
قال: انفرد به البخاري، وقد راجعت مظانه في مسلم فلم أعر
عليه، والله أعلم.

سورة الصافات: الآيات 171 - 173.

70

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء، والغمد - بكسر الغين المعجمة
وتخفيف الميم، وهو موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة
اليمن، الفتح (7/232).

71

بفتح أوله، وكسر ثانيه، وتخفيف النون - عند الرواة -، وضبط على
غير هذا واختلف في اسمه، فقليل: الحارث بن يزيد، وقيل مالك،

72

وهو سيد القارة - بتخفيف الراء - وهي قبيلة مشهورة من مضر وكانوا حلفاء لبني زهرة.. انظر: الفتح (7/233).

رواه البخاري في: 63 - مناقب الأنصار، 45 - باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، إلى المدينة: (4/254)، وفي: 8 - كتاب الصلاة 86 - باب المسجد يكون في الطريق ... (1/122) وفي: 39 - الكفالة في القرض والديون، 4 - باب جوار أبي بكر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.. فذكر طرفه، ثم ساقه تعليقاً: (3/58).

⁷⁴ورواه عبد الرزاق في المغازي، باب من هاجر إلى الحبشة، رقم (9743)، (5/385).

(74) كجعفر بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وغيرهم .. انظر: سيرة ابن هشام: (1/344-353).

رواها ابن إسحاق في السير والمغازي: ص (213) حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن.. عن أم سلمة.

وهو في سيرة ابن هشام - إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها، مسنداً: (1/357).

ورواه البيهقي: في سننه، كتاب السير، باب الإذن بالهجرة: (9/9) والزهري: إمام متفق على جلالته وإتقانه. انظر: التهذيب: (9/445) والتقريب: (2/207).

وأبو بكر بن عبد الرحمن هو ابن الحارث بن هشام المخزومي، مدني تابعي إمام ثقة، انظر: التهذيب: (12/30)، القريب: (2/398).

فالإسناد حسن لحال ابن إسحاق - كما سبق -.

ومن طريقه رواه الإمام أحمد في المسند: (5/290).